غياب الأثر الإيجابي للسنة النبوية
في المجتمعات الإسلامية: أسبابه وعلاجه

الدكتور أبو بحر دافي

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

إن للسنة النبوية إشعاعا يتجاوز حدود الزمان والمكان، وذلك بما اشتملت عليه من كنوز العلم والمعرفة، وبما أرشدت إليه من قيم سامقة، كانت ولا تزال الترجمان الحي عن الوحي المنزل، وصورة ناصعة متحركة بهذا الدين القيم، الذي تعجز الألسنة عن اللهج بمحاسنه، وتقف العقول متحيرة عن إدراك أسراره، وإن دراسة السنة واستنطاق نصوصها، وسبر أغوارها، لاستخراج دررها ومكنوناتها، لا يقل شأوا عن دراسة القرآن الكريم، واستلهام الهداية والرشاد من آياته، ولقد مضى على المسلمين ردح من الزمن لا يفرّقون بين الوحيين، في العلم والعمل، والدعوة والإصلاح، يتدبرون القرآن بنور السنة، ويتفقّهون في السنة على هدي من القرآن، فأثمر ذلك فقها صحيحا، وعملا مستقيما، لكن خلف من بعدهم خَلْف فرّقوا بين الكتاب والسنة، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، فأعقبهم ذلك فقها سقيما، وعملا مشوبا، اختلطت فيه الأولويات، وغابت فيه المقاصد والكليات، وضُعّيت فيه القيم الأساس التي جاء الوحي –قرآنا وسنة–لتثبيتها، وخفيت فيه المعالم الكبرى التي جاء الشرع لإرسائها.

فكان الواجب على أهل العلم أن يردوا الأمر إلى نصابه، ويبرزوا للمسلمين في هذا العصر ما خفي عليهم من مقاصد دينهم، ويظهروا لهم ما غاب عنهم من قيم كبرى جاء القرآن والسنة لحشد الأمة حولها، لتسعد في دنياها، وتنعم في أخراها.

وما هذا البحث الذي نسهم بها إلا محاولة متواضعة لتتشخيص الداء، ووصف الدواء، ضمن إشكال نصوغه في سؤال جوهري: لماذا غابت عنا هذه القيم الحضارية العظمى التي جاءت بها السنة، وتشبثنا بالجزئيات والخلافات؟ وما السبيل إلى إعادة بعثها والنهوض بها؟ وما هي العقبات والمعوقات التي تحول دون تحقيق هذا الهدف؟

وسنجيب عن هذه التساؤلات ضمن الخطة الآتية:

المطلب الأول: هجر السنة تعلما وتفقها وتدبرا، والاكتفاء بقراءتها تعبدا وتبركا.

المطلب الثاني: انتشار كثير من الأحاديث الواهية والموضوعة

المطلب الثالث: الفهم السقيم لبعض الأحاديث الصحيحة

المطلب الرابع: انتشار كثير من التصورات الفكرية والمذهبية المنحرفة.

المطلب الخامس: قصور مناهج التأليف والتدريس والبحث في السنة.

الخاتمة وتتضمن النتائج والتوصيات.

هذا وتجدر الإشارة إلى أننا لم نقف -مع طول البحث والتقصي- على دراسة تناولت هذا الموضوع بالشكل الذي نعزم على الكتابة فيه، إلا إشارات عبارة وفقرات مجملة عند بعض الكتاب الإسلاميين المعاصرين كالشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- في كتابيه "الإسلام والطاقات المعطلة" و"السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"والأستاذ محمد قطب- حفظه الله-في كتابه "مفاهيم يجب أن تصحح" والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في كتابة "السنة مصدرا للمعرفة والحضارة".

لقد أدرك الصفوة الأولى من صحابة رسول الله ومن سار على هداهم من سلف هذه الأمة، أهمية ما اشتمل عليه كتاب ربهم وسنة نبيهم، فأقبلوا عليهما علما وعملا، وتربية وسلوكا، فكانوا بذلك سادة العلم وقادته، وأنشئوا مجتمعا نموذجيا، وحضارة لم تعرف لها الدنيا نظيرا، يعجز اللسان عن وصفها وتفصيلها، وقد ألفت في ذلك كتب كثيرة ودراسات عديدة[1] فلا نتعرض لبيان ذلك، وإنما همنا في هذا البحث رصد أسباب غياب هذه القيم والهدايات، وضمورها في العصور المتأخرة، ولا نخوض في تحليل كل الأسباب وإنما نقف عند الأسباب التي جعلت المسلمين -في هذه العصور- لا يستثمرون السنة النبوية استثمارا ناجحا، ولا يتفاعلون معها تفاعلا إيجابيا، يقوي إيمانهم، ويوثق صلتهم بربهم، ويربط بينهم

1- ينظر: على سبيل المثال من روائع حضارتنا، للدكتور مصطفى السباعي، وشمس العرب تسطع على الغرب للمستشرقة، زيغريد هونكة، وحضارة العرب، للمستشرق غوستاف لوبون، وغيرها...

أواصر الأخوة الإيمانية، ويدفع بهم إلى الإبداع، وعمارة الكون، وريادة الأمم. ويمكن أن نجمل هذه الأسباب في الآتي:

- هجر السنة تعلما وتفقها وتدبرا، والاكتفاء بقراءتها تعبدا وتبركا.
- انتشار كثير من الأحاديث الواهية والموضوعة
- الفهم السقيم لبعض الأحاديث الصحيحة
- انتشار كثير من التصورات الفكرية والمذهبية المنحرفة.
- قصور مناهج التأليف والتدريس والبحث في السنة.
- هجر السنة تعلما وتفقها وتدبرا، والاكتفاء بقراءتها تعبدا وتبركا.

لعل هذا السبب في نظري من أكبر العوامل التي غيبت إشراقة السنة وقيمها في المجتمع المسلم في العصور المتأخرة، إذ أصبحت السنة عند كثير من الناس إنما تقرأ للتعبد والتبرك، ولدفع الوباء البلاء وقضاء الحاجات[1]، وأما أنْ تكون مصدرا لتعلم الدين والتفقه فيه، ووسيلة للهداية والإصلاح والإرشاد، فهذا مما لا يتصور في تلك الأزمنة –التي غلب فيها التقليد والجمود– ولا يقبل من قائله أيا كانت منزلته في العلم والدين، وقد استشرى هذا الداء وعمّ العامة والخاصة، ولم تسلم منه حتى أكبر المعاهد والجامعات التي مهمتها تخريج العلماء الذين وظيفتهم القيام بميراث النبوة على أكمل وجه وأتمه، ونشر قيمه وتعاليمه بين الناس، وأنى لهم ذلك وهم لم ينشّئوا عليه، ولم يتلقوه في مناهج تدريسهم، ومقررات تعليمهم؟

ومن ثم كان كثير من المصلحين ينعى على كثير من المعاهد العلمية الكبرى في عصره تقصيرها في تدريس الكتاب والسنة دراسة تستوعبهما بالشرح والبيان بما يمكّن طالب العلم من فهمهما الفهم الصحيح، واتخاذهما مصدرا للعلم والفقه والدعوة والعمل، والصلاح والإرشاد، وفي ذلك يقول: الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس –منتقدا مناهج جامع

1- ينظر: الكلام على هذه البدعة والرد عليها في قواعد التحديث، لجمال الدين القاسمي، ص. 263-267

الزيتونة في عصره، ومقترحا جملة من الأمور قصد التحسين والرقي بهذه الجامعة العريقة-: "فقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوما منزلة القرآن من تعليم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك"[1] ثم بين أن كثيرا من العلماء الكبار والمتصدرين للتدريس في عصره، ليس لهم معرفة بالتفسير، ولا بالسنة وعلومها فقال: "دعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه، والتفكر في آياته، ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك، وهجرنا تفسيره وتبيينه فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية، دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلا، بل ويصير مدرسا متصدرا ولم يفعل ذلك. ونفس الشيء حصل بالنسبة لكتب الحديث، حتى إنه يقل في المتصدرين للتدريس من كبار العلماء في أكبر المعاهد من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها مطالعة، فضلا عن غيرهم من أهل العلم، وفضلا عن غيرها من كتب السنة"[2].

وفي ذات الصدد يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "وما أهلك المسلمين في دينهم ودنياهم إلا الإعراض عن هداية الكتاب والسنة في الأمة على منهاج السلف الصالح التي شرع الله الدين لأجلها، ولهذا الإعراض سببان: أهونهما الجهل البسيط، وهو عدم العلم بما خاطب الله الناس في كتابه، وبما بينه لهم رسوله -صلى الله عليه وسلم — منه بسنته وهديه، وبما كان عليه أهل العصر الأول عصر النور من الاهتداء بالكتاب والسنة علما وعملا وخلقا وجهادا وفتحا وحكما بين الناس. وأعسرهما وأضرهما: الجهل المركب ووهم التعليم

1- الشهاب، الجزء11، المجلد 10، رجب 1353 هـ- أكتوبر1934 م، ص. 478-481، عدد أكتوبر سنة 1934

2- الشهاب، الجزء 02، المجلد 08، ص68-75، عدد فبراير 1932، والتفسير، ص. 232-233.

التقليدي لكتب المتأخرين من المتكلمين من الفقهاء والصوفية، والاستغناء بها عما كان عليه السلف، ومنهم أئمة الأمصار من المحدثين والفقهاء "[1].

ويبيّن الشيخ محمد النخلي القيراوني مقتضيات الإصلاح الديني وشروطه فيقول: " ولا يقدر على الإصلاح إلا من عرف طبيعة الدين بالوقوف على روحه المقاصدية، وخبر سنة سيد المرسلين بمعرفة علوم الحديث رواية ودراية حتى تكون لديه ملكة النقد حاضرة، سبر سيرة الصحابة والتابعين، واطلع على آراء الأئمة المجتهدين، وتحرر من قيود التقليد، واتسم بكبر الهمة ومضاء العزيمة وثقافة الفكر، وانطلاق اللسان في فنون البيان، فالنتيجة أن لا إصلاح يلائم بين الضرتين الدنيا والآخرة إلا بدين، ولا دين إلا بالعلم، ولا علم إلا بالعقل، وكبر الهمة "[2] ونصوص المصلحين والمجددين من علماء المشرق والمغرب في هذا الصدد كثيرة جدا يطول استقصاؤها، وفيما ذكرناه كفاية.

- **انتشار كثير من الأحاديث الواهية والموضوعة:** لقد كان لكثير من الأحاديث الواهية والموضوعة التي انتشرت في الأمة آثارا سيئة في حجب أنوار السنة الصحيحة، وخفاء تعاليمها وقيمها في المجتمع الإسلامي في عصوره المتأخرة خاصة، وحتى نجلي حقيقة الأمر نضرب على ذلك بعض الأمثلة من الأحاديث الموضوعة والمنكرة، ونبين وجه معارضتها للقيم الحضارية الواردة في السنة الصحيحة.

فمن الأحاديث التي تناقض القيم الأخلاقية التي أصّلتها السنة ورسّختها في نفوس المسلمين من حسن الخلق، وطيب المعاشرة مع الناس، وبذل المعروف، والسعي في مصالح

---

1 - ينظر: مقدمة الشيخ محمد رشيد رضا لقواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، لجمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص. 16-17.

2- آثار الشيخ محمد النخلي، ص. 94 بواسطة الشيخ محمد النخلي وإسهامه في حركة الإصلاح والتجديد، طبع وزارة الشؤون الدينية، بتونس سنة 1997، ص. 220.

المسلمين، وحسن الظن بهم، ما ينسب للنبي-صلى الله عليه وسلم-" **الحدة لا تكون إلا في صالح أمتي وأبرارها، ثم تفيء**" [1]. و"**خيار أمتي أحداؤهم، إذا غضبوا، رجعوا**"[2].

فمن آثار هذه الأحاديث السيئة أنها توحي للمرء بأن يظل على حدته، وأن لا يعالجها، لأنها من خلق المؤمن[3]. ومثلها حديث آخر يروى عن النبي بسند ضعيف "**إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه، فصدقوا، وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه، فلا تصدقوا به، وإنه يصير إلى ما جبل عليه**"[4]. فهذا الحديث يوحي للمسلم أنه ليس بإمكانه تحسين خلقه، لأنه لا يملك تغييره، لأنه مجبول عليه، فهو يبرر لسيء الخلق أن يبقى على خلقه السيئ، بل يملؤه يأسا وإحباطا إن حاول تحسين خلقه، فهذا الحديث يقضي على أصول التربية الإسلامية، بل يجعلها عبثا وشيئا لا يرجى منه أي خير، وأي قيم تبقى في المجتمع حينها؟ وأين هذا من عشرات الأحاديث الصحيحة الداعية إلى تحسين الخلق؟ كقوله — صلى الله عليه وسلم -: " أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حسّن خلقه"[5] وقوله: "إنما الحلم بالتحلم"[6].

---

1 - حديث موضوع رواه العقيلي في الضعفاء الكبير (141/1) ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، ط.1، مكتبة المعارف الرياض، سنة 1412-1992، 102/1-103.

2 - حديث موضوع رواه العقيلي في الضعفاء الكبير، ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، 102/1-103.

3 - ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، 102/1-103.

4 - ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، 260/1-261.

5 - رواه أبو داود 288/2، وغيره، وسنده صحيح.

6 - أخرجه البخاري وغيره.

ومن هذه الأحاديث أيضا ما يروى عن النبي– صلى الله عليه وسلم -: "**يأتي على الناس زمان هم فيه ذئاب، فمن لم يكن ذئب أكلته الذئاب** "[1]. فأي أخلاق ينشئها مثل هذا الحديث؟ إنه يزرع في النفوس المكر والخديعة والحيلة، التي تقطّع أواصر الأخوة، وتهدم بنيان المجتمع.

وليس بعيدا عن هذا الحديث، حديث آخر ينسب للنبي –صلى الله عليه وسلم– ولا يصح عنه " **احترسوا من الناس بسوء الظن** "[2]فأين هذا الحديث من تلك الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي يأمر فيها المسلمين بأن يحسنوا الظن بإخوانهم، ولا يسيئوا بهم الظن، فمن ذلك ما رواه البخاري"إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"بل أين هذا الحديث من قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم" فمثل هذه الأحاديث تدمر القيم الأخلاقية للمجتمع، وتفكك الرابط الاجتماعية، لأنها تملأ القلوب نفرة وعداوة، وإذا تنافرت القلوب تباعدت الأجساد.

هذه نماذج قليلة فيما يتعلق ببعض القيم الأخلاقية فقط، وهناك العشرات والمئات غيرها في مختلف الجوانب التعبدية والعقدية والعلمية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية مما يطول استقصاؤه، ولم نقصد في بحثنا هذا الاستيعاب وإنما قصدنا التدليل على أن للأحاديث الواهية والموضوعة أثرا كبيرا في بث قيم سلبية على مختلف المستويات، وإنها تعيق بروز القيم الإيجابية التي جاءت بها السنة الصحيحة الثابتة. وتحجب عن كثير من الناس إدراك الهدي النبوي الشامل والمتميز.

---

1 – حديث ضعيف جدا أورده ابن الجوزي في الموضوعات (8/3)، والسيوطي في الآلي المصنوعة (156/2)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (287/7)، وينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، 111/1.

2 – حديث ضعيف جدا أخرجه الطبراني في الأوسط (36/1)، وابن عدي في الكامل (2398/6)، وينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، 288/1–289 .

الفهم السقيم لبعض الأحاديث الصحيحة: لقد غابت كثير من القيم الواردة في السنة النبوية بسبب الفهم القاصر، إما لعدم إدراك مرامي النصوص النبوية ومقاصدها، أو بسبب الجمود والحرفية على ظواهرها، أو لغياب التوفيق بين مختلفها ومشكلها، وغدا الأخذ ببعض ما ورد في السنة وتطبيقها في أحايين كثيرة يجافي سماحة الإسلام ويسره، أو يعارض المقاصد الكلية والقيم الكبرى التي جاء هذا الدين بقرآنه وسنته لترسيخها.

فمما جاء به القرآن والسنة الصحيحة الدعوة لعمارة الدنيا والاستمتاع بما فيها من الطيبات، فمن ذلك قوله تعالى: "**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**"[1] وقوله: "**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**"[2] وغيرها.

وأما في السنة فنجد أحاديث كثيرة تصدق ما ورد في القرآن، وإلى جنب ذلك نجد أحاديث أخرى يعارض ظاهرها تلك النصوص المحكمة، فيساء فهمها، ويشكل العمل بها، ويضيع من قيم السنة بقدر ما غشاها من سقم الفهم، وسوء العمل. فمن هذه الأحاديث ما رواه أبو أمامة الباهلي –وقد رأى سكة وشيئا من آلة الحرث–فقال: سمعت رسول الله– صلى الله عليه وسلم–يقول: "**لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل**"[3] وقوله–صلى الله عليه وسلم–: "**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**"[4] وقوله–صلى الله عليه

---

1 – سورة هود، 61

2 – سورة القصص، 77

3 – صحيح البخاري، كتاب: كتاب المزارعة، باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو مجاوزة الحد الذي أمر به، رقم الحديث: 2196، ج. 2، ص. 817.

4 – صحيح البخاري، كتاب: كتاب المزارعة، باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو مجاوزة الحد الذي أمر به، رقم الحديث: 2196، ج. 2، ص. 817.

وسلم-: "**لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا**"[1] فهذه الأحاديث الصحيحة يوحي ظاهرها ترك العمل والاستثمار، وذم الفلاحة والزارعة، ولا تخفى أهميتها من الناحية الاقتصادية، فهي من ركائز التنمية. ولكن عند البحث المستوعب في السنة نرى أن هذا فهما سطحيا يعارض كثيرا مما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي يدعو فيه إلى الاهتمام باستثمار الأرض وزرعها فمن ذلك قوله-صلى الله عليه وسلم-: " **ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة**"[2].

وقوله-صلى الله عليه وسلم-: "**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**"[3]. فلابد والحالة هذه من نشر الفقه الصحيح لمثل تلك الأحاديث التي توهم خلاف المقصود منها، وكيفية فهم السلف الصالح لها. لأنهم كانوا يفقهون هذه الأحاديث الفقه الصحيح، ويتعاملون معها التعامل الإيجابي، فقد اعتبر بعض الصحابة الرجل يعمل في إصلاح أرضه عاملا من عمال الله فعن نافع بن عاصم ، أنه سمع عبد الله بن عمرو قال لابن أخ له خرج من الوهط[4]: أيعمل عمالك؟ قال: لا أدري، قال: أما لو كنت ثقفيا لعلمت ما يعمل عمالك، ثم التفت إلينا فقال: إن الرجل إذا عمل مع عماله في داره -وقال أبو عاصم مرة: في ماله- كان عاملا من عمال الله عز وجل[5].

---

1 - رواه الترمذي في سننه: كتاب الزهد عن رسول الله، رقم الحديث: 2328، ج. 4، ص. 565، وقال: حديث حسن. وابن حبان في صحيحه (710) 487/2. والحاكم في مستدركه (7910) 358/4 وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

2 - رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس(2195)817/2 ومسلم في جامعه: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع.

3 - رواه البخاري في الأدب المفرد، باب اصطناع المال (486)138/1وأحمد في مسنده (12569) 41/4 وهو حديث صحيح.

4 - الوهط في اللغة هو البستان، ينظر: المصباح المنير.

5 - رواه البخاري في الأدب المفرد، : باب: عمل الرجل مع عماله، رقم (453)131/1وسنده حسن.

وروى ابن جرير عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غدا، فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسنها. فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي[1]. وقال عبد الله بن سلام لرجل: إن سمعت بالدجال وأنت على وديّة[2] تغرسها، فلا تعجل أن تصلحه، فإن للناس بعد ذلك عيشا[3].

وعن الحارث بن لقيط قال: كان الرجل منا تنتج فرسه فينحرها، فيقول: أنا أعيش حتى أركب هذا؟ فجاءنا كتاب عمر أن أصلحوا ما رزقكم الله فإن في الأمر تنفساً[4].

هكذا فهم السلف هذه الأحاديث، وهكذا تعاملوا معها التعامل الصحيح، وهذا ما ألمح إليه أئمة الحديث، فالإمام البخاري ترجم للأحاديث التي أوردها في فضل الزرع والغرس بقوله: "باب فضل الزرع إذا أكل منه"وترجم للأحاديث التي يفهم منها خلاف ذلك بقوله "باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو مجاوزة الحد الذي أمر به"، قال ابن المنير: " أشار البخاري إلى إباحة الزرع، وأن ما نهي عنه، كما ورد عن عمر، فمحله إذا ما شغل الحرث عن الحرب ونحوه من الأمور المطلوبة، وعلى ذلك يحمل حديث أبي أمامة المذكور في الباب الذي بعده"[5]يريد بذلك حديث "لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل"[6].

قال الحافظ ابن حجر"وفي الحديث فضل الغرس والزرع، والحض على عمارة الأرض ويستنبط منه اتخاذ الضيعة والقيام عليها، وفيه فساد قول من أنكر ذلك من المتزهدة وحمل ما ورد من التنفير عن ذلك على ما إذا شغل عن أمر الدين. . . وحمل حديث الباب على

---

1 – أورده السيوطي في الجامع الكبير، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: 12/1.

2 الودية هي صغار النخل وهي الفسيلة.

3 – رواه البخاري في الأدب المفرد،: باب: اصطناع المال، رقم الحديث (486)138/1 بسند صحيح.

4 – رواه البخاري في الأدب المفرد،: باب: اصطناع المال، رقم الحديث (485)138/1 بسند صحيح.

5 – انظر فتح الباري: 5/5.

6 – سبق تخريجه.

اتخاذها للكفاف أو لنفع المسلمين بها وتحصيل ثوابها"[1]. وقال العلامة العيني: "وفيه أن الغرس والزرع واتخاذ الصنائع مباح، وغير قادح في الزهد، وقد فعله كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم "[2]. وقال أيضا: "وقد أشار البخاري بالترجمة(باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو مجاوزة الحد الذي أمر به)بالجمع بين حديث أبي أمامة والحديث الماضي في فضل الزرع والغرس وذلك بأحد أمرين: إما أن يحمل ما ورد من الذم على عاقبة ذلك ومحله ما إذا اشتغل به فضيع بسببه ما أمر بحفظه، وغما أن يحل على ما إذا لم يضيع إلا أنه جاوز الحد فيه"[3].

مثال ثان: ومن الأحاديث الصحيحة التي تصلح أن نمثل بها في هذا الصدد ما رواه خباب بن الأرث "إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب"[4] وحديثه أيضا أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه"[5] وقد وردت في هذا السياق عدة أحاديث وآثار قد يفهم منها بأن الإسلام ينفر من البناء والعمران، وأن المسلم لا يؤجر عليه[6]، وهذا الفهم لهذه الأحاديث فهم سطحي

---

1 - فتح الباري: 6/5.

2 - عمدة القاري: 156/12.

3 - فتح الباري: 7/5.

4 - رواه البخاري، في كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، رقم (5348) 5/ 2147. ورواه ابن حبان في صحيحه: كتاب الزكاة، باب ما جاء في الحرص وما يتعلق به، رقم الحديث (3243)34/8.

5 - رواه البخاري في الأدب المفرد، باب: النفقة في البناء، رقم الحديث (452)131/1وسنده صحيح عن خباب -رضي الله عنه- وأخرجه الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم الحديث (2482) 4 / 651 من رواية زافر بن سليمان عن إسرائيل عن شبيب بن بشر عن أنس بن مالك، وقال فيه: حديث غريب، وأورده ابن عدي في كامله (203/4) من طريق زافر بسنده إلى أنس، وذكر أن عامة أحاديثه مقلوبة الإسناد والمتن، ولا يتابع عليها. فالحديث صحيح محفوظ من رواية خباب، وليس من رواية أنس.

6 - انظر شعب الإيمان للبيهقي: 389/7-405.

وسلبي، وهذه النصوص لابد أن تفهم على ضوء القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة الأخرى، وعمل السلف الصالح، وعند النظر في القرآن الكريم نجده يعتبر البيوت نعمة من نعمه التي ينبغي أن تشكر ولا تكفر، قال تعالى: "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم " (النحل: 80)

والسنة تجعل المسكن الواسع أحد أركان السعادة في الدنيا ففي حديث سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء، المرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق"[1].

وقد أوضح علماء الحديث المقصود من هذه الأحاديث ، فهذا الإمام البيهقي يوردها في باب الزهد وقصر الأمل، فصل في ذم بناء ما لا يحتاج إليه من القصور والدور وقال الإمام احمد في الحديث الذي يرويه: سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من بني بنياناً في غير ظلم ولا اعتداء كان أجره جارياً عليه ما انتفع به أحد في خلق الرحمن[2]. قال الإمام أحمد: وهذا إن صح فيحتمل أن يكون في بناء الرباطات وفيما لا بد منه من بناء يكنه من الحر والبرد دون بناء يراد به الزينة فقط والله أعلم. [3]

وروى ابن حبان عن قيس بن أبي حازم، قال أتينا خباباً نعوده، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الرجل ليؤجر في نفقته كلها إلا في هذا التراب " قال أبو حاتم رضي الله عنه: معنى هذا الخبر: لا يؤجر إذا أنفق في التراب فضلاً عما يحتاج إليه من البناء [4].

---

1 – أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، وصححه.

2 – انظر شعب الإيمان للبيهقي: 405/7.

3 – انظر شعب الإيمان للبيهقي: 405/7.

4 – صحيح ابن حبان، كتاب الزكاة، باب ما جاء في الحرص وما يتعلق به، رقم(3243) 34/8.

وقال الحافظ ابن حجر: "وفي ذم البناء مطلقاً حديث خباب رفعه قال «يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب» أو قال «البناء» أخرجه الترمذي وصححه وأخرج له شاهداً عن أنس بلفظ «إلا البناء فلا خير فيه» وللطبراني من حديث جابر رفعه «إذا أراد الله بعبد شراً خضر له في اللبن والطين حتى يبني» ومعنى «خضر» بمعجمتين حسن، وزناً ومعنى، وله شاهد في «الأوسط» من حديث أبي بشر الأنصاري بلفظ «إذا أراد الله بعبدٍ سوءاً أنفق ماله في البنيان» وأخرج أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال «مر بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أطين حائطاً فقال: الأمر أعجل من ذلك» وصححه الترمذي وابن حبان، وهذا كله محمول على ما لا تمس الحاجة إليه مما لابد منه للتوطن وما يقي البرد والحر، وقد أخرج أبو داود أيضاً من حديث أنس رفعه «أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا، إلا ما لا» أي إلا ما لا بد منه، ورواته موثقون إلا الراوي عن أنس وهو أبو طلحة ألأسدي فليس بمعروف، وله شاهد عن واثلة عند الطبراني. "[1]

وقال أيضا: -معقبا على الداودي في شرح قول ابن عمرَ: والله ما وَضعتُ على لَبنة ولا غرَستُ نخلةً منذ قُبضَ النبيّ صلى الله عليه وسلم. --"وكلامه يوهم أن في البناء كله الإثم، وليس كذلك بل فيه التفصيل، وليس كل ما زاد منه على الحاجة يستلزم الإثم. ولا شك أن في الغرس من الأجر من أجل ما يؤكل منه ما ليس في البناء، وإن كان في بعض البناء ما يحصل به الأجر مثل الذي يحصل به النفع لغير الباني فإنه يحصل للباني به الثواب والله سبحانه وتعالى أعلم"[2].

وقال العلامة العيني: "وقد ذم الله عز وجل من بني عما يفضل عما يكنه من الحر والبرد ويستره عن الناس فقال: "أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون" يعني قصورا، وقد جاء عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-انه قال: "ما انفق ابن آدم في التراب فلن يخلف له، ولا يؤجر عليه"وأما من بني ما يحتاج إليه ليكنه من الحر والبرد والمطر فمباح

---

1 - فتح الباري: 95/11.

2 - فتح الباري: 96/11

له ذلك، وكذلك كان السلف يفعلون ألا ترى إلى قول ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: رأيتُني مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بنَيتُ بيدِي بيتاً يُكنّني منَ المطر ويظلّني من الشمس، ما أعانني عليه أحدٌ من خلق الله"[1]

وهذا يفسر ما ورد عنه مما يفيد ظاهره انه لم يبن قال ابنُ عمرَ: والله ما وَضعتُ على لَبنة ولا غرَستُ نخلةً منذ قُبضَ النبيّ صلى الله عليه وسلم. "[2]

ويحتمل أن يكون الذي نفاه ابن عمر ما زاد على حاجته، والذي أثبته أهله بناء بيت لابد له منه أو إصلاح ما وهى من بيته[3]. ولا بأس في هذا الصدد من أن نختم بكلمة طيبة للشيخ محمد الغزالي حول هذا الموضوع قال رحمه الله: "ويظهر أن كثيرا من الناس جعل من المباني إعلانا عن العظمة، واستطالة على الآخرين، بدل أن يجعلها مواطن استجمام، وتهيؤ للعمل في أرجاء الحياة، ويظهر ذلك في قول الله تعالى لثمود"واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين"[4].

ولو بنينا ناطحات سحاب وعمرنا غرفاتها بالتسبيح والتحميد لتقبل الله منا؟ أما بناء دار صغيرة، والتقلب داخلها بطرا وكبرا فذاك لا خير فيه، وهذا ما نفسر به حديث أنس أن رسول الله —صلى الله عليه وسلم —قال: "النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه".

والواقع أن هناك حضارات بادت ومدائن دمرت، لان مبانيها كانت ضجيجا لا تتبين فيه شكرا لله، ولا أثارة من تقوى "[5].

---

1 - عمدة القاري: 274/22.

2 - صحيح البخاري: كتاب الاستئذان، باب ما جاء في البنيان. رقم (6303)95/11 مع الفتح.

3 - فتح الباري: 96/11.

4 - الأعراف: 74.

5 - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص. 87.

– **انتشار كثير من التصورات العقدية والمذهبية المنحرفة:** لقد كان لكثير من التصورات والآراء العقدية المنحرفة أثرا بارزا في غياب القيم الإسلامية الواردة في القرآن والسنة على حد سواء، وإضمار التفاعل معها، وتكريس السلبية والخمول واللافاعلية، وسنركز على أبرز هذه الآراء محاولين بيان تأثيرها السلبي على الأخذ بالقيم الحضارية الواردة في السنة على مستوى الفرد والمجتمع: ولسنا نعني في بحثنا هذا من ينكر السنة جملة وتفصيلا كالقرآنيين، وغلاة الروافض، وأشباههم من كل مدع للإسلام، وإنما نرصد بعض الآراء التي تنتشر بين من ينتسب للسنة في الجملة، ويعظمها ويعتبرها مصدرا للحكم والتشريع، وقد رأيت أن أربعة آراء هي –في نظري– من أكبر المعوقات للاستفادة من السنة النبوية كمصدر للقيم الحضارية وهي: الإرجاء، والجبر، والتصوف المنحرف، والظاهرية الغالية.

قصور مناهج التأليف والتدريس والبحث في السنة: إن المتأمل في الكتب والمقررات التي تعنى بالسنة يلحظ قصورا واضحا في هذا الجانب، فإن كان تفسير القرآن الكريم قد قطع شوطا كبيرا في مسايرة الإصلاح وتطلب حاجات المجتمع الراهنة، فظهرت تفاسير كثيرة، أبرزت هداية القرآن الكريم، بينما في السنة فالأمر يختلف كثيرا، فكتب السنة مازلت على الوضع الأول، وبذات الترتيب والمحتوى الذي كان منذ قرون والذي روعيت حاجات معرفية خاصة، بأهل العلم من أهل الفقه والحديث، و لم يجد المسلم في هذا العصر كتابا جامعا لما يحتاج إليه من الأحاديث النبوية الصحيحة، بترتيب وتبويب مناسبين لروح العصر.

وإذا جئنا لجانب المقررات الدراسية في الكليات الإسلامية، فجلها تركز على الجانب العلمي من السنة أي: علوم الحديث ومصطلحه، أو الجانب الفقهي تحت مسمى أحاديث الإحكام، والجانب اللغوي والبياني، وتغفل جوانب القيم في السنة، أولا يتم التركيز عليها بالقدر الكافي.وإذا يممنا شطر المؤلفات والبحوث التي تعنى بالسنة سواء في الإطار الجامعي الأكاديمي أو في البحوث الحرة، لا نجد بحوثا تركز على هذه الجوانب تركيزا كبيرا، وجل البحوث منصب على الدراسة التراثية فيما يتعلق بالعلل والجرح والتعديل والتخريج وغيرها

من المسائل، ولا نرى اهتماما موازيا بفقه السنة والحديث الموضوعي، الذي يسهم في معالجة كثير من القضايا الأخلاقية والاجتماعية والفكرية وغيرها على ضوء هدي السنة النبوية.

وفي ختام هذا البحث نخلص إلى جملة من النتائج وهي:

1- إن غياب الأثر الإيجابي للقيم الحضارية الواردة في السنة النبوية أصبح في عصرنا هذا ظاهرة تستحق الدراسة لتحليل أسبابها وتقصي آثارها.

2- إن عوامل كثيرة أسهمت في ضمور القيم الواردة في السنة في مجتمع المسلمين منها ما هو راجع إلى إشكاليات في الفهم ومنها ما هو راجع إلى قصور في تقديم السنة للأجيال المعاصرة تقديما سهلا متناسبا مع روح العصر. وإن كثيرا من الأحاديث الموضوعة والواهية تقف حاجزا في طريق استفادة المسلمين من السنة الصحيحة.وإن الفهوم القاصرة لبعض ما صح عن النبي-صلى الله عليه وسلم-تطمس القيم الصحيحة للسنة.وتغيب الأثر الإيجابي لها.

3- لا يمكن الاستفادة من القيم الواردة في السنة النبوية إلا إذا صححنا منهج التلقي عند المسلم، وعالجنا كثيرا من الانحرافات العقدية والمذهبية التي تعيق التعامل الصحيح مع السنة النبوية. إن قصور مناهج التأليف والتدريس والبحث في السنة والتركيز على جوانب معينة تخدم الناحية الإسنادية أو الناحية الفقهية فقط غيب كثيرا من القيم الواردة في السنة التي كان يمكن أن يستفيد منها المسلمون في دينهم ودنياهم.

وعلاجا لأسباب هذه الظاهرة نقترح جملة من التوصيات: الارتقاء بمنهج التأليف في السنة النبوية وذلك بكتابة موسوعات شاملة للسنة الصحيحة تلبي حاجة المسلم المعاصر من حيث المحتوى والترتيب والتبويب.والتحذير من الأحاديث الموضوعة والواهية وجمعها في كتب خاصة حتى يتيسر للعامة الوقوف عليها ومعرفتها،والحذر منها. وصياغة مناهج التعليم المسجدي والمدرسي والجامعي وفق رؤية شاملة للقيم الإسلامية الواردة في القرآن والسنة.وتوجيه البحوث العلمية لطلبة الحديث في مرحلتي الماجستير والدكتوراه نحو موضوعات تمس حاجة المسلمين المعاصرة.وعقد ملتقيات وندوات علمية تعنى بإبراز القيم الإيجابية الواردة في السنة ودراستها دراسة وافية.